# سورة القمر ▲

# 54 مكية

## تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآية رقم [1]

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1)}

لما ختمت النجم بالتهديد باقتراب القيامة التي ينكرونها بعد أن فتحها بالأقسام البلس (؟) في النجم الذي هو أعم من القمر وغيره بتسييره طلوعاً وأفولاً وصعوداً وهبوطاً، افتتح هذه بذلك مع الدلالة عليه عقلاً وسمعاً في التأثير في أعظم آيات الله وغير ذلك ليقطع العباد عن الفساد، ويستعدوا لها قبل مجيئها أحسن استعداد، فقال دالا على عظيم اقتداره عليها بتأنيث فعلها: {اقتربت الساعة} اشتدت قرباً الساعة: اللحظة التي لا ساعة في الحقيقة غيرها التي تقوم فيها القيامة لأنه قل ما بقي بيننا وبينها بالنسبة إلى ما مضى من زمن آدم عليه السلام لبعث خاتم الأنبياء الذي لم يبق بعد أمته أمة تنتظر، فيكون في الزمان مهلة لذلك.

ولما كان الإخبار باقترابها يحتاج عند المعاند إلى آية دالة عليه، وكانت الآيات السماوية أعظم، فالتأثير فيها أدل على تمام الاقتدار، وكان القمر أدل على الأنواء التي بها منافع الخلق في معاشهم، وكانت العرب أعرف

الناس بها، دلهم على التأثير فيه على اقترابها مع الإرهاب من شدائد العذاب بإعدام الأسباب فقال: {وانشق} بغاية السرعة والسهولة {القمر *} آية للرسول المنذر لكم بها، فكان انشقاقه- مع الدلالة على ذلك بإعجاز القرآن وغيره- دالاً على كونها وقربها أيضاً بالتأثير العظيم الخارق لعادة ما قبله من التأثير في أحد النيرين اللذين هما أعظم الأسباب المقامة للمعايش الدال على القدرة على التأثير في الآخرة الدال ذلك على القدرة على تمام التصرف فيهما من جمعهما وخسفهما واعتدامهما ولسببهما (؟) الذي هو من أسباب خراب الأرض، يقول الإنسان عنده: أين المفر؟ المؤذن بطيّ العالم المعلم بأن له رباً فاعلاً بالاختيار مدبراً بالحكم الدال على بعث عباده ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فيثيب من تابع رسله ويعاقب من خالفهم، وانشقاق القمر على حقيقته في زمان النبي صلى الله عليه وسلم أمر شهير جداً، وإجماع أهل التفسير عليه كما قاله القشيري،

وقال: رواه ابن مسعود رضي الله عنده ولا مخالف له فيه- انتهى.

وذلك أن قريشاً سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية «فأراهم انشاق القمر بحيث طلعت فرقة عن يمين حراء وأخرى عن يساره»- رواه الشيخان عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما، ومعلوم أن الأمة تلقت كتابيهما بالقبول فهو يكاد يلحق بالمتواتر وقد أيده القرآن فلم يبق فيه شك،

قال القشيري: وروى أيضاً ابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم رضي الله عنهم، وقال أبو حيان: سبب نزولها أن مشركي العرب من قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين،

ووعدوه بالإيمان إن فعل ذلك، وكانت ليلة البدر فسأل ربه فانشق– انتهى، ومن قال: المراد به «سينشق» يحتاج في صرف الماضي عن حقيقته إلى المستقبل إلى صارف وأنى له ذلك ولا سيما وقد تأيدت الحقيقة بالنسبة الصحيحة الشهيرة.

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: لما أعلمهم سبحانه بأن إليه المنتهى، وأن عليه النشأة الأخرى، وإذا ذاك يقع جزاء كل نفس بما أسلفت، أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه للازدجار فقال تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر}

ثم إن سورة ص تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها، وبعد التنبيه في السورة قبلها والتحريك بآيات لا يتوقف عنها إلا من أضله الله وخذله، وأثبتت السورة بعد على تمهيد ما تضمنته سورة ص فلم يخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم لقوله في الزمر

{والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمر: 3]

وقوله: {لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء} [الزمر: 4]

وقوله: {قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه} [الزمر: 14]

وقوله مثلاً لحالهم: {ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون} [الزمر: 29] الآية إلى ما بعد من التقريع والتوبيخ،

وقوله في ســورة غافر : {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد} [غافر: 4]

وقوله: {ذلكم بأنه إذ دعى الله وحده كفرتم وإن يشــرك به تؤمنوا فالحكم لله} [غافر: 12]

وقوله: {أفلم يسيروا في الأرض} [غافر: 21- 82] الآية،

وقوله: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه} [غافر: 56]

وقوله: {ألم تر إلى الذين يجادلون في أيات الله أنى يصرفون} [غافر: 69] {الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون} [غافر: 70] إلى قوله : {فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون} [غافر : 77]

وقوله: {أو لم يسيروا في الأرض} [غافر: 82] إلى ما تخلل هذه الآيات،

وقوله في فصــلت {فأعرض أكثرهم فهم لا يســمعون وقالوا قلوبنا في أكنة} [فصلت: 5]

{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه} [فصلت: 26]

{إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا} [فصلت: 40- 44] إلى قوله: {أولئك ينادون من مكان بعيد} [فصلت: 40- 44]

وقوله: {ســنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفســهم} [فصــلت: 53] إلى آخر السورة،

وقوله في الشـورى: {والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل} [الشورى: 6]

{كبر على المشـــركين ما تدعوهم إليه والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم} [الشورى: 13] الآية

{أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} [الشورى: 21] الآية

{فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ} [الشورى: 48]

وقوله في الزخرف: {أفنضرب عنكم الذكر صفحاً} [الزخرف: 5] الآية،

{وجعلوا له من عباده جزءاً} [الزخرف: 15] إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشـــد التقريع، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها مثل قوله تعالى في الدخان {بل هم في شك يلعبون} [الدخان: 9] إلى قوله: {يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون} [الدخان: 16]

وقوله: {إن يوم الفصـل ميقاتهم أجمعين} [الدخان: 40] إلى قوله هذا {ما كنتم به تمترون} [الدخان: 50]

وقوله في الأعراف: {فبأيّ حديث بعده يؤمنون} [الأعراف: 185] إلى قوله: {والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم} [الجاثية: 11]

وقوله: {أفرءيت من اتخذ إلهه هواه} [الجاثية: 23] إلى آخر السورة،

وقوله في الأحقاف: {والذين كفروا عما أنذروا معرضـون} [الأحقاف: 3] ومعظم هذه الآية لم يخرج عن هذا إلى ختامها، وكذلك ســورة القتال (اي ســورة محمد صـلي الله عليه وسـلم) ولم يتضـمن إلا الأمر بقتلهم وأسـرهم وتعجيل حربهم {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب} [محمد: 4]

وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد على الكفار من كل ما قرعوا به، ولم تخرج عن الغرض المتقدم، وكذا سورة الحجرات لتضمنها من الأمر بتقدير النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد وما فيها أيضاً من إتلاف أمر المؤمنين وجمع كلمتهم وتآخيهم، وموقع هذا لا يخفى على أحد، وأما سورة الذاريات والطور والنجم فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء، وبذلك افتتحت كل سورة منها فتأمل مطالعها ففي ذلك كفاية في الغرض- والله تعالى هو أعمل بالصواب، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغت الآي في هذه السورة من ذلك أقصى غاية، وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم، ولم يحيروا جواباً فيما عرض عليهم سبحانه في سورة القمر من أحوال الأمم مع أنبيائهم، وكان القصد من ذلك- والله أعلم- مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم وأن لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم، فهذه السورة إعذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر، ولهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله تعالى: {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر} وختمها سبحانه بقوله: {أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر} وهذا يبين ما قدمنا، وكان قد قيل لهم: أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبهم وتظنوا أنكم ستفوزون بعظيم جزائكم، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجزل إيراد وأفخم عبارة وألطف إشارة،

فبدأ بقصة قوم نوح بقوله: {كذبت قوم نوح} إلى قوله: {ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر}

ثم استمر في ذكر الأمم مع أنبيائهم حسبنا ذكروا في السورة الوارد فيها إخبارهم من ذكر أمة بعد أمة إلا أن الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر وأبلغ في الوعظ وأعرق في الإفصاح بسوء منقلبهم وعاقبة تكذيبهم، ثم ختمت كل قصة بقوله: {فكيف كان عذابي ونذر} وتخلل هذه القصص بقوله تعالى: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} وهي إشارة إلى ارتفاع عذر من تعلق باستصعاب الأمور على زواجره وتنبيهاته ومواعظه ويدعي بعد ذلك واستعلاقه فقيل له إنه ميسر قريب المرام، وهذا فيما يحصل عند التنبيه والتذكير لما عنده بكون الاستجابة بإذن الله تعالى ووراء ذلك من المشكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكره وحسب عموم المؤمنين الإيمان بجميعه والعمل بمحكمه، ثم يفتح الله تعالى فهم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته، فيتبين بحسب ما يشرح الله تعالى صدره {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} ومن تيسر المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أممهم في عدة سور أيّ حفظ مها اطلع على ما هو كاف في الاعتبار بهم، ثم إذا ضم بعضه إلى بعض اجتمع منه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السورة، فسبحان من جعله حجة باهرة وبرهاناً على صدق الآتي به محمد صلى الله عليه وسلم، وصراطاً مستقيماً ونوراً مبيناً، ولما ذكر سبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشركي العرب: {أكفاركم خير من أولائكم} ومن هذا النمط قول شعيب عليه السلام:

{ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صـــالح وما قوم لوط منكم ببعيد} [هود: 89] ثم قال تعالى: {أم يقولون نحن جميع منتصـــر ســـيهزم الجمع ويولون الدبر} إي إنكم تعلقتم بتألفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمتكم يوم بدر بقتل صناديدكم فما حجتكم بعد هذا، إنما مسـاق القصـص في هذه السـورة واعتماد التعريف بحال من ذكر في أن كذبوا وعاندوا، فأعقب تكذيبهم أخذهم وهلاكهم، ثم تعقب هذا كله بصـرف الكلام في مشـركي العرب في قوله: {أكفاركم خير من أولائكم} وليس شـيء من السـور المذكورة فيها قصـص على هذا الاسـتيفاء كالأعراف وهود، وبظاهرهما ليس في شـيء من ذلك تعقيب بذكر مشـركي العرب على الصـــفة الواردة هنا، فأنبأ ذلك بكمال المقصـــود من الوعظ والتحريك بذكره وانقضـــاء هذا الغرض، وذلك أنهم ذكروا أولاً بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل إليه أمرهم، وكان ذلك في صـــورة عرض من يريد تأديب طائفة من إليه نظرهم قبل أن يظهر منهم تمرد وعناد، فهو يســـتلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد عليهم، بل يفهم الإشـفاق والاسـتعطاف وإرادة الخير بهم ثم يذكرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة وإن تخلل ذلك ما يبين منهم فظاعة التهديد وشـدة الوعيد، فلا يصـحبه تعيين المخاطب وصـرف الكلام بـالكليـة إليـه، بـل يكون ذلـك على طريق التعريض والتوبيخ، ثم لو كـان لا يحتقر بما قبلـه ومـا بعده من التلطف حتى إذا تكررت الموعظـة فلم تقبل، فهنا محل الغضب وشدة الوعيد، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم كسورة الأعراف وهود والمؤمنين والظلة والصافات، وما من سورة منها

إلا والتي بعدها أشد في التعريف وأمل في الزجر بعد التعريف، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى:

{وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون} [الأعراف: 174]

وقوله بعد موعظة بالغة بذكر من حرمه بعد إشـــرافه عل الفوز وهو الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقال بعد ذلك {فاقصـــص القصـــص لعلهم يتفكرون} [الأعراف: 176]

وتذكيره إياه لمحنة الغفلة إلى ما ختمت به الســـورة وذلك غير خاف في التلطف بالموعظة

وقال تعالى بعد قصص سورة هود: {وكذلك أخذ ربك} [هود: 102] الآية، وقال تعالى: {فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء} [هود: 109]- إلى قوله- {وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص} [هود: 109]

وتكررت الآية إلى آخر الســـورة يجاري ما ذكر ولم تبق هذه وآي الأعراف في تلطف الاستدعاء،

وقال تعالى في قصص آخر سورة المؤمنين: {فذرهم في غمرتهم حتى حين} [المؤمنون: 54]- إلى قوله- {لا يشعرون} [المؤمنون: 56]

ثم قال: {ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون} [المؤمنون: 64] اسـتمرت الآي على شـدة الوعيد يتلو بعضـــها بعضـــاً إلى قوله: {أفحســـبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون} [المؤمنون: 115]

وقوله تعالى بعد: {إنه لا يفلح الكافرون} [المؤمنون: 17] ولم يبين هذه الآي، وبين الواقعة عقب قصص سورة هود، وقال في آخر قصص الظلمة: {وإنه لتنزيل رب العالمين} [الشعراء: 192] إلى قوله خاتمة السورة: {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشـعراء: 227] فوبخهم وعنفهم ونزه نبيه صـلى الله عليه وسـلم عن توهمهم وعظيم إفكهم وافترائهم، وكل هذا تعنيف وإن لم يتقدم له مثله في السورة المذكورة، ثم هو صـريح في مشـركي العرب معين لهم في غير تلويح ولا تعريض، ثم إنه وقع عقب كل قصـــة في هذه السـورة قوله تعالى: {إن في ذلك} وفيه تهديد ووعيد، وقال تعالى في آخر والصـافات: {فاسـتفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شـاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون} [الصـافات: 149]

وهذا أعظم التوبيخ وأشد التقريع،

ثم نزه نبيه سـبحانه عن بهتان مقالهم وسـوء ارتكابهم وقبح فعالهم، بقوله: {سـبحان ربك رب العزة عما يصـفون} [الصـافات: 180] فلما أخذوا بكل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم قال تعالى في سـورة القمر: {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر} {حكمة بالغة فما تغني النذر}،

ثم قال تعالى لنبيه صـلى الله عليه وسـلم: {فتول عنهم} ولم يقع أمره صـلى الله عليه وسـلم بتركهم والإعراض عنهم والتولي إلى بعد حصـول القصـص في السـورة المذكورة وأخذهم بكل طريق، وأول أمره بذلك صـلى الله عليه وسلم في سورة (الم) السجدة {فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون} (32،30)

ثم في سورة والذريات {فتول عنهم فما أنت بملوم} بأشد وعيد وأعظم تهديد بعقب كل قصة بقوله: {ولقد تركناها آية فهل من مذكر} وقوله: {فكيف كان عذابي ونذر} ثم صرف إليهم بما تقدم قوله: {أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر} فبلغ ذلك أعظم مبلغ في البيان وإعذار،

ثم قال تعالى: {وكل شيء فعلوه في الزبر} ففرق سبحانه بسابق حكمته فيهم {إنا كل شيء خلقناه بقدر} وانقضى ذكر القصص فلم يتعرض لها مستوفاة على المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب- فسبحان من رحم به عباده المتقين وجعله آية وأي آية باهرة إلى يوم الدين، وقطع عناد الجاحدين وغائلة المعتدين وجعله بياناً كافياً ونوراً هادياً وواعظاً شافياً- جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن اهتدى واعتلق بسببه إنه أهل الاستجابة والعفو والمغفرة- انتهى.

## تفسير الآيات رقم [2- 7]

{وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2)
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6)
خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7)}

ولما كان التقدير: فأعرض الكفار عن آية انشقاقه وقالوا: سحر، مع علمهم بأنه دال قطعاً على صدق من انشق لتصديقه، عطف عليه الإعلام بحالهم

في المســـــتقبل فطماً لمن يطلبه من المؤمنين إجابة مقترحة من مقترحاتهم رجاء إيمانهم فقال: {وإن يروا} أي فيما يأتي {آية} أي أية آية كانت {يعرضوا} أي عن الانتفاع بها كما أن أعرضوا عن هذه لما رأوها،

وقال بعضهم: سحر،

وقال بعضهم: أمهلوا حتى يجيء السفار،

فإن قالوا: إنهم رأوا كما رأيتم فليســـت بســـحر، فإن محمداً لا يســـتطيع أن يسحر أهل الأرض كلهم، فجاء السفار وشهدوا برؤيته منشقاً، ومع ذلك فلم يؤمنوا {ويقولوا} أي على سبيل التجديد منهم والاستمرار: هذا {سحر} أي هذا الذي يأتينا به هذا الرجل من وادي الخيال الذي لا حقيقة له وهو {مستمر *} أي لأنه فارق السحر بأنه لا ينكشف في الحال لأنه محكم ثابت دائم بشـــموله وإحاطته بجميع الأنواع، ولذلك يتأثر عنه غاية الخوارق المتباينة الأنواع الكثيرة.

ولما فطم عن التشـــوف إلى إجابتهم في المقترحات على ما قدرته، تســـبب منهم عن الانشـــقاق بقوله: {وكذبوا} أي بكون الانشـــقاق دالاً على صـــدق الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وجزموا بالتكذيب عناداً أو خبثاً منهم. ولما كان التكذيب في نفســـه قد يكون حقاً، قال مبيناً أنه باطل، فبين عن حالهم بقوله: {واتبعوا} أي بمعالجة فطرهم الأولى المســـتقيمة في دعائها إلى التصـــــديق {أهواءهم} أي حتى نابذوا ما دلتهم عليه بعد الفطرة الأولى عقولهم، قال القشيري: إذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب، لأن الله سبحانه وتعالى يلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد،

واتباع الرضـــى مقرون بالتصـــديق لأن الله تعالى ببركات الاتباع للحق يفتح عين البصـــيرة فيأتي بالتصـــديق- والله الهادي. ولما كان ذلك مفظعاً لقلوب المحقين، ســـلاهم بالوصـــول إلى محط تظهر فيه الحقائق وتضـــمحل فيه الشـقاشـق، فقال عاطفاً على ما تقديره: فسـيسـتقر أمر كل من أمر المحق والمبطل في قراره، ويطلع على دقائقه وأســـراره : {وكل أمر } من أموركم وغيرها {مســتقر *} أي ثابت وموجود، انتهاؤه إلى غاية تظهر فيها حقيقته من غير حيلة تصـــــاحبه إلى رد ذلك القرار ولا خفاء على أحد، فلا بد أن ينتهي الحق من كل شــيء من الآجال والهدايات والضــلالات والســعادات والشـــقاوات وغيرها إلى نهايته فيثبت ثبوتاً لا زوال له، وينتهي الباطل مما دعاه الخلق فيه إلى غايته فيتلاشى تلاشياً لا ثبات له بوجه من الوجوه، فإذا استقرت الأمور ظهر ما لهم عليه وعلموا الخاسر من الفائز، وفي مثل هذا قال ابن عمرو التيمي أخو القعقاع في وقعة السي (؟) من بلاد العراق:

والموت خيلنا لما التقينا *** بقارن والأمور لها انتهاء

وقرأ أبو جعفر بالجر صــفة لأمر، فيكون معطوفاً على الســاعة أي واقترب كل أمر مســـــتقر أي ثابت وهو الحق أي اقترب الظهور وثباته، وذلك لا يكون إلا وقد كان خفاء الباطل وفواته. ولما حذر وبشـــــر قال معلماً أنه محيط العلم بأمرهم من قبل الإجابه إلى شــق القمر وأنه ما شــقه لطمع في إيمانهم بلا للأعلام بخذلانهم مؤكداً لمن يتعلق رجاؤه بأن تواتر الآيات ربما أوجب لهم التصديق المتضمن لأن ما جاءهم ليس فيه كفاية: {ولقد جاءهم} من قبيل الانشقاق {من الأنباء} أي الأمور العظيمة المرئية، المسموعة التي

تســـتحق لعظمتها أن يخبر بها إخباراً عظيماً ســـيما ما جاء في القرآن من تفصيل أصول الدين وفروعه وأخبار الأولين والآخرين والأولى والأخرى {ما فيه} خاصة {مزدجر *} أي موضع للزجر من شأنه أن يكون لهم به انزجار عظيم عما فيه من الباطل، ولكن لم يزدجر منهم إلا من أراد الله، قال القشيري: لأن الله أسبل على أبصارهم سجوف الجهل فعموا عن مواضع الرشد.

ولما كان ما فيه ذلك قد لا يكون محكماً، بينه بقوله: {حكمة} عظيمة {بالغة} أي لها معظم البلوغ إلى منتهى غايات الحكمة لصـــحتها وطهارتها ووضـــــوحها، ففيها مع الزجر ترجية ومواعظ وأحكام ودقائق تجل عن الوصف. ولما تسبب عنها انزجارهم، سبب عن ذلك قوله: {فما} نفياً صريحاً أو باســـتفهام إنكاري موبخ {تغن النذر *} الإنذارات والمنذرون والأمور المنذر بها- إنما المعني بذلك هو الله تعالى، فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، ولعل الإشارة بإسقاط يا «تغني» بإجماع المصاحف من غير موجب في اللفظ إلى أنه كما سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت نمرة الإنذار وهو القبول.

ولما كان صلى الله عليه وسلم التعلق بطلب نجاتهم، فهو لذلك ربما اشتهى إجابتهم إلى مقترحاتهم، سبب عن ذلك قوله: {فتول عنهم} أي كلف نفسك الإعراض عن ذلك فما عليك إلا البلاغ، وأما الهداية فإلى الله وحده. ولما بين اقتراب الساعة بالإجابة إلى بعض مقترحاتهم القائمة مقامها كلها بدلالته على القدرة عليها، وأتبع ذلك الفطم عن طلب الإجابة إلى شـــيء فيها لأنها

لا تغني شيئاً، تطلعت النفوس الكاملة إلى وصف الساعة فأجاب عن ذلك على سبيل الاستئناف بذكر ظرفها وذكر... ما يقع فيه من الأهوال، فقال معلقاً بما تقديره: الساعة كائنة على وجه الاقتراب الشديد: {يوم يدع} ويجوز- والله أعلم- أن يكون الناصب له {تول} لأنهم لما أعرضوا حين دعاهم كان جزاءهم أن يعرض عنهم يوم حاجتهم إليه لأن الجزاء من جنس العمل، فكأنه قيل بعد أن عد القيامة أمراً محققاً لا يأتي النزاع فيه: تول عنهم في ذلك اليوم العبوس الذي أنت فيه الشافع المقبول.

.. واتركهم لأهواله ودواهيه، فقد بان الخاسر فتوليهم إنما يضرهم، لأن توليهم عنك لا يضرك شيئاً أصلاً، وتوليك عنهم يضرهم ضرراً ما بعدهم ضرر- والله أعلم، وحذف واو «يدعو» للرسم بإجماع المصاحف من غير موجب لأن المقام لبيان اقترابها، فكأنه إشارة إلى كونها بأدنى دعاء، وأيضاً ففي حذفه تشبيه للخبر بالأمر إشارة إلى أن هذا الدعاء لا بد على أن يكون على أعظم وجه وأتقنه وأهوله وأمكنه كما يكون كل مأمور من الأمر المطاع، والوقف على هذا وأمثاله بغير واو لجميع القراء موافقة للرسم لأن القاعدة أن ما كان فيها رواية أتبعت وإن خالفت الرسم أو الأصل، وما لم يرد فيه عن أحد منهم رواية اتبع فيه الرسم وإن خولف الأصل، لأن التخفيف معهود في كلام العرب كالوال والمتعال من أسمائه الحسنى، لكن قال علامة القراءات شمس الدين الجزري في كتابه المسمى بالنشر في هذه الأحرف الأربعة: هذا و{يدع الإنسان} في سبحان و{يمح الله الباطل} في شورى و{سندع الزبانية} في العلق: نص الحافظ أبو عمرو الداني عن

يعقوب على الوقف عليها بالواو على الأصـــل، ثم قال: قلت: وهو من انفراده، وقد قرأت به من طريقه {الداع} أي النفخ في الصور {إلى شيء نكر *} عظيم الوصـف في النكارة بما تكرهه النفوس فتوجل منه القلوب لأنه لا شيء منه إلا وهو خارج عما تقدمه من العادة.

ولما بين دعاءه بما هال أمره، بين حال المدعوين زيادة في الهول فقال: {خشـــعاً أبصـــارهم} أي ينظرون نظرة الخاضـــع الذليل السـافل المنزلة المستوحش الذي هو بشـر حال، ونسـب الخشـوع إلى الأبصـار لأن العز والذل يتبين من النظر فإن الذل أن يرمي به صـــاحبه إلى الأرض مثلاً مع هيئة يعرف منها ذلك كما قال تعالى: {خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي} وإفراده في قراءة أبي عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي على أن الخشوع بلغ في النهاية من الشدة ونسبته إلى كل بصر على حد سواء، وجمع على لغة «أكلوني البراغيث» تفي قراءة الباقين بضم الخاء وتشديد الشين مفتوحة أو مستنداً المدعوين، والإبصـار يدل بعض الإشـارة إلى أن كل ذلك موزع على الأبصار.

ولما بين من حالهم هكذا ما يدل على نكارة ذلك اليوم، بين كيفية خروجهم بياناً لما يلزم من تصوره زيادة الذعر فقال: {يخرجون} أي على سبيل التجدد الأشرف فالأشرف {من الأجداث} أي القبور المهيأة لسماع النفخ في الصور {كأنهم} في كثرتهم وتراكم بعضـــهم على بعض من كبيرهم وصـــغيرهم وضعيفهم وقويهم {جراد منتشر *} أي منبث متفرق حيران مطاوع لمن نشره

بعدما كان فيه من ســـكون مختلط بعضـــه ببعض، لا جهة له في الحقيقة يقصدها لو خلى ونفسه.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 12]

{مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9)
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11)
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)}

ولما كان الانتشـــار قد يكون وجه المهل والوقار، قال مبيناً أن الأمر على خلاف ذلك زيادة في هول ذلك اليوم وتقريراً لما تقدم من وصـفه: {مهطعين إلى الداع} أي مســرعين خائفين مقبلين بأبصـــارهم عليه لا يقلعون عنه، مادين أعناقهم نحوه مصـوبي رؤوســهم لا يلتفتون إلى ســواه كما يفعل من ينظر في ذلك وخضـوع وصـمت واستكانة. ولما بين حال الكل حصـر حال المبطلين فقال: {يقول} أي على ســبيل التكرار: {الكافرين} أي الذين كانوا في الدنيا عريقين في ستر الأدلة وإظهار الأباطيل المضلة: {هذا} أي الوقت الذي نحن فيه بما نرى من الأهوال {يوم عســر *} أي في غاية العســر الصعوبة والشدة، وذلك بحسب حالهم فيه.

ولما تقدم أمره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتولي عنهم تهديداً لهم، وصرح بما أراد من أمر الساعة لما دعا إلى ذلك من تقدم ذكرها، ولأنها أشد هول يهددون به، وبياناً أن الخلق ما خلق إلا لأجلها لأنها محط الحكمة،

وختم بعســــرها على الكافرين، تمم ذلك التهديد بعذاب الدنيا ردعاً لأهل الغلظة الموكلين بالمحســوســات، فذكر عســر يوم كان على الكافرين فيها، فقال مهدداً لقريش بجعل القصــة مثلاً لهم في إهلاكهم وفي أمر الســاعة من حيث إنه كما أهلك أهل الأرض في آن واحد بما أرســله من الماء فهو قادر على أن يهلكهم في آن واحد بالصيحة، وكما صرف هذا التصريف الذي ما ســمع بمثله في الإهلاك فهو قادر على أن يصــرفه في الإحياء عند البعث على وجه ما عهد مثله تنبت فيه الأجســاد وتحيا فيه العباد، جواباً لمن كأنه قال: هذا ما يوعدونه بعد الموت، فهل لهم عذاب قبله دال على كمال القدرة: {كذبت} أو أوقعت التكذيب العظيم الذي عموا به جميع الرســالات وجميع الرسل، وأنث فعلهم تحقيراً لهم وتهويناً لأمرهم في جنب قدرته.

ولما كان ما كان من تصميمهم عليه وعزمهم على عدم الانفكاك عنه لكونه جبلة مســتغرقاً لجميع ما بعدهم من الزمان، وكانوا قد ســنوا ســنة التكذيب فكان عليهم مع وزرهم وزر من أتى بعدهم، وكان ما قبلهم من الزمان يسيراً في جنب ما بعده عدماً، فلذلك ذكر الظرف من غير حرف جر لأنه مع أنه الحق أعظم في التســلية فقال: {قبلهم} أي في جميع ما ســلف من الزمان ومضــى بعضــه بالفعل وبعضــه بالقوة لقوة العزم: {قوم نوح} مع ما كان بهم من القوة ولهم من الانتشار في جميع الأقطار.

ولما ذكر تكذيبهم إشــارة إلى أنه جبلة لهم جحدوا بها النبوة رأســاً فلاحظ لهم في التصــديق للحق فلا يفترق حالهم بالنســبة إلى أحد من الناس كان من كان، فلذلك ســبب عن هذا المطلق قوله: {فكذبوا عبدنا} أي على ما له من

العظمة نسبة إلينا لكونه لم يتعبد لغيرنا قط مع تشريفنا إياه بالرسالة، فكان تكذيبهم فراً مما دخل في تكذيبهم المطلق الشامل لكل ما يمكن تكذيبه وهو ميد ( ؟ ) {وقالوا} مع التكذيب أيضاً زيادة على تغطية ما ظهر منه من الهداية: {مجنون} أي فهذا الذي يظهر له من الخوارق من أمر الجن.

ولما كان إعلاء الصوت على النبي كائناً من كان عظيم القباحة جداً زائد الفظاظة فكيف إذا كان مرسلاً فكيف إذا كان من أولي العزم فكيف إذا كان على سبيل الإنكار عليه، فكيف إذا كان على صورة ما يفعل ممن لا خطر له بوجه، قال بانياً للمجهول إشارة إلى تبشيعه من غير نظر إلى قائل وإيذاناً بأن ذلك لم يكن من أكابرهم فقط بل من كبيرهم وصغيرهم: {وازدجر *} أي أعملوا أنفسهم في انتهاره وتوعده وتهديده وانتشر ذلك في جميعهم بغاية ما يكون من الغلظة كفاله عن الرسالة ومنعاً له عنها، والمعنى أنهم قالوا: إنه استظهر عليهم بالجنون.

ولما طال ذلك منهم ومضت عليه أجيالهم جيلاً بعد جيل حتى مضى له من إنذارهم أكثر مما مضى من الزمان لأمة هذا النبي الحاتم إلى يومنا هذا، وأخبره الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن معه، تسبب عن ذلك الدعاء بالراحة منهم، فلذلك قال صارفاً وجه الخطاب إلى صفة الإحسان والربوبية والامتنان إيذاناً بأنه أجاب دعاءه ولبى نداءه: {فدعا ربه} أي الذي رباه بالإحسان إليه برسالته معلماً له لما أيس من أجابتهم: {أني مغلوب} أي من قومي كلهم بالقوة والمنعة لا بالحجة، وأكده لأنه من يأبى عن الملك الأعظم يكون مظنة النصرة، وإبلاغاً في الشكاية إظهاراً لذل العبودية، لأن

الله سبحانه عالم بسر العبد وجهره، فما شرع الدعاء في أصله إلا لإظهار التذلل، وكذا الإبلاغ فيه {فانتصر *} أي أوقع نصري عليهم أنت وحدك على أبلغ وجه.

ولما استجاب له سبحانه، سبب عن دعائه قوله، عائداً إلى مظهر العظمة إعلاماً بمزيد الغضب الموجب دائماً للاستيعاب بالغضب: {ففتحنا} أي تسبب عن دعائه أنا فتحنا فتحاً يليق بعظمتنا {أبواب السماء} كلها في جميع الأقطار، وعبر بجمع القلة عن الكثرة لأن عادة العرب أن تستعيره لها وهو أرشق وأشهر من بيبان، وسياق العظمة يأبى كونه لغيرها. ولما كان المراد تهويل أمر الماء بذكر حاله التي كان عليها حتى كأن المحدث بذلك شاهده جعلت كأنه آية فتحت بها السماء فقال: {بماء منهمر *} أي منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب عظماً وكثرة، ولذلك لم يقل: بمطر، لأنه خارج عن تلك العادة، واستمر ذلك أربعين يوماً {وفجرنا} أي صدعنا بما لنا من العظمة وشققنا وبعثنا وأرسلنا {الأرض عيوناً} أي جميع عيون الأرض، ولكنه عدل عنه للتهويل بالإبهام ثم البيان، وإفادة لأن وجه الأرض صار كله عيوناً.

ولما كان الماء اسم جنس يقع على الأنواع المختلفة كما يقع على النوع الواحد، وكان قد ذكر ماء السماء والأرض، سبب عن ذلك قوله: {فالتقى الماء} أي المعهود وهو ماء السماء وماء الأرض بسبب فعلنا هذا، وزاد في تعظيمه بأداة الاستعلاء فقال: {على أمر} ولما تقررت هذه العظمة لهذه الواقعة، فكان ربما ظن أنه صار جزافاً، وزاد على الحد المأمور به، أشار

إلى أنه بالنسبة إلى عظمته في غاية الحقارة فقال: {قد قدر *} أي مع كونه مقدوراً عليه في كل وقت بغاية السهولة قد وقع تقديره في الأزل، فلم يستطع أن يزيد على ذلك قطرة فما فوقها ولا أن يهلك غير من أمرناه بإهلاكه، وأشار بالتخفيف إلى غاية السهولة في ذلك سبحانه.

### ▲ تفسير الآيات رقم [13– 18]

{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13)
تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14)
وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16)
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)
كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18)}

ولما ذكر ما علم منه بقرينة ما ذكر من خرقه للعادة، وأن إجابته لدعوته عليه الصلاة والسلام، ذكر تمام الانتصار بنجاته فقال: {وحملناه} أي بما لنا من العظمة على متن ذلك الماء بعد أن صار جميع وجه الأرض مجرى واحداً، وحذف الموصوف تهويلاً بالحث على تعرفة بتأمل الكلام فقال: {على ذات} أي سفينة ذات {ألواح} أي أخشاب نجرت حتى صارت عريضة {ودسر *} جمع دسار وهو ما يشد به السفينة وتوصل بها ألواحها ويلج بعضها ببعض بمسمار من حديد أو خشب أو من خيوط الليف على وجه الضخامة والقوة الدفع والمتانة، ولعله عبر عن السفينة بما شرحها تنبيهاً على قدرته على ما يريد من فتق الرتق ورتق الفتق بحيث يصير ذلك

المصـــــنوع، فكان إلى ما هيأه ليراد منه وإن كان ذلك المراد عظيماً وذلك المصنوع.

ولما كان ذلك خارقاً للعادة فكان يمكن أن يكون في الســــفينة خارق آخر بإســـــكانها على ظهر الماء من غير حركة، بين أن الأمر ليس كذلك فقال مظهراً خارقاً آخر في جريها: {تجري} أي السفينة {بأعيننا} أي محفوظة أن تدخل بحر الظلمات، أو يأتي عليها غير ذلك من الآفات، بحفظنا على ما لنا من العظمة حفظ من ينظر الشيء كثرة ولا يغيب عنه أصلاً، وجوزوا أن يكون جمع تكســـير لعين الماء، ثم علل ذلك بقوله: {جزاء} أي لعبدنا نوح عليه الســـلام، ولكنه عبر هنا بما يفهم العلة ليحذر الســـامع وقوع مثل ذلك العذاب له إن وقع منه مثل فعل قومه فقال: {لمن} وعبر عن طول زمان كفرهم بقوله: {كان كفر *} أي وقع الكفر به وهو أجل النعم، فقال على أهل ذلك الزمان وذلك جزاء من كفر النعم، ويجوز أن يكون المراد به قومه بين أنه وقع الكفر منهم وقوعاً كأنهم مجبولون عليه حتى كأنه وقع عليهم لتوافق قراءة مجاهد بالبناء. للفاعل.

ولما تم الخبر عن نجاته بحمله فيها، نبه عن آثارها بقوله: {ولقد تركناها} أي هذه الفعلة العظيمة من جري الســـفينة على هذا الوجه وإبقاء نوعها دالة على ما لنا من العظمة، وقيل: تلك السـفينة بعينها بقيت على الجودي حتى أدرك بقايا ما هذه الأمة {آية} أي علامة عظيمة على ما لنا من العلم المحيط والقدرة التامة {فهل من مدكر *} أي مجتهد في التذكير بسـبب هذا الأمر لما يحق على الخلق من شكر الخالق بما هدت إليه رسله كما قالوه.

ولما قدم تعالى قوله : {فما تغن النذر } وأتبعه ذكر إهلاكه المكذبين، وكان ما ذكره من شأنهم أمرهم في الجلالة والعظمة بحيث يحق للسامع أن يسأل عنه ويتعرف أحواله ليهتدي بها على ذلك بقوله مسبباً عن التذكير باستفهام الإنكار والتوبيخ: {فكيف كان} أي وجد وتحقق {عذابي} أي لمن كذب وكفر وكذب رسلي {ونذر *} أي الإنذارات الصادرة عني والمنذرون المبلغون عني فإنه أنجى نوحاً عليه السلام ومن آمن معه من أولاده وغيرهم ومتعهم بعد إهلاك عدوهم وجعل الناس الآن كلهم من نسله، قال القشيري: في هذا قوة لرجاء أهل الدين إذا لقوا في دين الله محنة فجحد غيرهم ما آتاه الله أن يهلك الله عن قريب عدوهم ويمكنهم من ديارهم وبلادهم ويورثهم ما كان إليهم، وكذلك سنة الله في جميع أهل الضلال- انتهى.

وكان المعنى في تكرير ذلك عليهم بعد التذكير بما أتيناهم به من قصص هذه الأمم ميسراً لفهم صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم كيف كان أخذي لهم وعاقبة تخويفي إياهم لعلهم يتعظون فينفعهم إنذار المنذرين.

ولما كان هذا التفصيل مما أنزل أول القرآن تيسيراً على الأمة، نبه على ذلك بقوله: {ولقد يسرنا} أي على ما لنا من العظمة {القرآن} أي على ما له من الجمع والفرق والعظمة المناسبة لكونه صفة لنا {للذكر} أي الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والحفظ والتشريف لمن يراعيه، قال ابن برجان: أنزلناه باللسان العربي وأنزلناه للأفهام تنزيلاً وخاطبناهم بعوائدهم وأعلمنا من قبل أعمالهم وأقبسناهم المعرفة واليقين من قبل ذواتهم وضربنا لهم الأمثال وأطلنا لهم في هذه الأعمال ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم، وقال القشيري: يسر قراءته

على ألسنة قوم، وعلمه على قلوب قوم، وفهمه على قلوب قوم، وحفظه على قلوب قوم، وكلهم أهل القرآن وكلهم أهل الله وخاصته- انتهى. والآية ناظرة بالعطف والمعنى إلى {ولقد جاءهم من الأنباء} الآيتين، فالمعنى أنا ولو شئنا بما لنا من العظمة لجئناهم بعبارات لا يشمون رائحتها، وبلاغات لا يهتدون إلى وجه معناها أصلاً لكننا لم نفعل ذلك بل خاطبناهم بأبلغ من بلاغتهم مع تيسير فهم ما خاطبناهم به فكان في ذلك إعجازان: أحدهما أنه فوق بلاغتهم، والثاني أنه مع علوه يشترك في أصل فهمه الذكي والغبي.
ولما كان هذا القرآن العظيم الجامع ترجمة لأفعاله سبحانه في هذا الوجود الشاهد والغائب الذي أخبرنا عنه وشرحنا لما أنزل علينا من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تعرف لنا بها، وكان سبحانه قد جعل خلق الآدمي جامعاً، فما من شيء من أفعاله إلا وفي نفسه منه أثر ظاهر ناظر للتفكر في القرآن والتعرف للأسرار منه بالتذكير الذي يكون... لما كان الإنسان يعرفه ثم نسيه حتى صار لا يستقل باستحضاره فإذا ذكر به ذكره، فقال منبهاً على عظيم فعل العلم والقرآن الذي هو طريقه بالتكرار والتعبير بما هو من الذكر على أنه المحفوظ للإنسان بما هيأ له من تيسير أمره {فهل من مدكر *} قال البخاري في آخر صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه، وقد تكررت هذه الموعظة في هذه السورة أربع مرات، وذكرت الجملة الأخيرة منها منفكة عن تيسير القرآن مرتين: مرة في أول القصص وهي قصة نوح عليه السلام، ومرة كما يأتي في آخرها، وذلك عقب قصة فرعون وهو قوله: {فكيف كان عذابي ونذر} مثل ذلك، وكررت

{فبأي ألاء ربكما تكذبان} في الرحمن إحدى وثلاثين مرة، فنظرت في ســر ذلك فظهر لي- والله الهادي- أن الذي تقدم في ســورة المفصــل على هذه السورة أربع سور هذه السورة خاتمتها فأشير إلى التذكر بكل سورة منها حثاً على تدبرها بآية ختمت كلماتها بكلمة عادت حروفها في الســور الخمس وأدغم حرف منها في آخر بعد قلب كل منهما، فكانت هذه الكلمة التي مدلولها الذكر مشـــيرة إلى الحواس الخمس الظاهرة التي هي مبادئ العلم، وكان ما في أول هذه المواعظ وآخرها لخلوه عن ذكر القرآن موازياً للحرفين اللذين طرفهما للوهن بالتعبير والقلب لكن كان الحرفان بالإدغام كحرف واحد، كانت الجملتان الموازيتان لهما كآية واحدة من تلك الأربع، وكان هذا الأول والآخر مشاراً به إلى هذه السورة التي جمعت التذكير بالسورة الأربع، وأعريت عن ذكر تيسير القرآن لافتتاح السور السور بمحو وما يقرب من المحو وهو آية الليل والتيسير فيها والساعة التي هي أغيب الغيب، وكل من فيها ســوى الله محو لســلب الأمر كله عنهم وخصــت بها الأولى والآخرة لجامع بينهما من غرق العصــا في الماء ونجاة المطيعين بعضــهم بالسفينة وبعضهم بنفس البحر الذي هو مسرح السفن، وكانت الموعظة المذكور فيها القرآن في ختام قصة نوح عليه السلام مع عمومها لجميع القرآن إشارة إلى خصــوص التذكير بســورة ق لما بينهما من جامع الإحاطة بإحاطة جبل ق بالأرض كلها وطوفان قوم نوح عليه الســلام بعموم جميع الأرض والتي في سورة عاد إشارة إلى سورة الذاريات لأن كلاهم كان بالريح، والتي في قصة ثمود إشـــارة إلى التذكير بالطور بجامع ما بينهما من الرج والرجف والذل

والصـــعق، أما في قصـــة ثمود فظاهر، وأما في الطور فلما كان من دكه وصعق بني إسرائيل فيه، وقد ذكر الصعق في آخر الطور، وما في قصة لوط إشـــارة إلى النجم لأن مدائنهم ارتفعت إلى عنان الســـماء ثم أهويت وأتبعت الحجارة، فلما كان الأمر هكذا، وكانت النعم محيطة بالإنســـان من جهاته الست، فضربت الحواس الخمس في الجهات الست، فكانت ثلاثين، كأنه قيل: هل مذكر بهذا القرآن، ولا سيما ما تقدم على هذه السورة منه في المفصل ما لله عليه من النعم في نفسه وفي الآفاق المشار إلى القسم الأول منها بمذكر وإلى الثاني بتكرير ذكر الآلاء فكل آية تكرير انتهى إلى العدد المخصـوص وإلى المجموع بالمجموع ليعلم أن نعم الله محيطة به على وجه لا يقدر على صـــنعه إلا الله الذي له الإحاطة بجميع صـــفات الكمال التي أعظمها- من حيث كونه أساساً يبنى عليه- الوحدانية المنزهة عن الشركة فيخشى من معصيته أن يسلبه نعمه أو واحدة منها فلا يجد من يقوم بها ولا بشيء منها غيره أو يعذبه بشيء مثل عذاب هذه الأمم أو بغير ذلك مما له من إحاطة القدرة والعلم فلا يجد من يرد عنه شيئاً منه سبحانه، وأما الواحد الزائد فهو إشـــارة إلى أن المدار في ذلك الإدراك هو العقل والحواس كما أن المقصـود بذلك كله واحد وهو الله تعالى، وكل هذه الأشياء أسباب لمعرفته وأيضاً فالواحد إشارة إلى أن زيادة الآلاء من فضل الله تعالى لا تنقطع كما أن الواحد الذي هو أصـــــل العدد لا يزال، فكلما أغنت زيادتها ابتدأ دور ثم ابتدأ دور آخر دائماً أبداً، وللتكرير نكتة أخرى بديعة جداً، وهي تأكيد التقرير دلالة على اشتداد الغضب المقتضي لأنهى العقوبة كما أن من اشتد غضبه

من إنكار شـــخص لشـــيء من قتله إذا بينه غاية البيان بأمور متنوعة وهو يتمرد ويلد غاية اللدد يأخذه فيجمع له جمعاً لا يقدر على العدول عن الحق بحضرتهم.

وهو يذعن وهو في قبضته فيذكر تلك المعاني بين ذلك الجمع، فيصير كلما ذكر له نوعاً منها بحضرتهم، قال له: هل ظهر لك هذا؟ فيقول ذاك المنكر: نعم ظهر لي، فلا يريد ذلك إلا غضـباً لما تقدم له من عظيم غضـبه ولدده فيذكر له معنى آخر ثم يقول: هل ظهر لك هذا؟ فيقول: نعم والله لا يعرج على اعترافه ذلك ويذكر لـه نوعـاً آخر، ويقول مثل ذلك يريد الزيـادة في تبكيته وتخجيله، وهكذا إلى أن يشتفي- كل ذلك للتنبيه على لدده وكفاية كل نوع منها لما أريد منه من البيان، وقال في الكشـاف: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أدكاراً واتعاظاً وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سـمعوا الحث عليه والبعث على ذلك كله وأن يقرع لهم العصـــى مرات ويقعقع لهم الســن تارات، لئلا يغلبهم الســهود ويســتولي عليهم حكم الغفلة، وهكذا حكم التكريرات لتكون العبر حاضـرة للقلوب مصـورة للأذهان مذكورة غير منسـية في أوان- انتهى، ولمثل ما مضـــى أو قريب منه كرر التهويل بالعذاب ست مرات: أربع منها {فكيف كان عذابي ونذر} واثنان منها {فذوقوا عذابي ونذر} فهما بمنزلة واحدة من الأربع ليرجع الســت إلى الخمس الدال عليها {مدكر} إشارة إلى أن الحواس الخمس كما ضربت في الجهات الست لأجل النعم التي هي جلب المصـــالح ضــربت فيها للتذكير بدفع النقم الذي هو درأ المفاسـد والتحذير منها، ومن فوائد تكرر السـت الراجعة إلى الخمس

مرتين : مرة لجلب النعم وأخرى لدفع النقم أن الحواس مكررة ظاهراً وباطناً، فمن ذل لسانه بالقرآن ظاهراً صحت حواسه الظاهرة ونورت له الباطنة، ومن أبى عذب بسبب الباطنة فتفسد الظاهرة، واختير للموعظتين عدد الست مع إرادة جماعة إلى خمسة لأن الست عدد تام وذلك لأن عدد كسورها إذا جمعت سادتها ولم تزد عنها ولم تنقص وهي النصف والثلث والسدس، وهذا العدد مساو لدعائم الإسلام الخمس وحظيرته الجهاد التي هي عماد تقوى المتقين أهل مقعد الصدق الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إلى نبيهم صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله المشار به إلى الصيام

{كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم} [البقرة: 183] والحج {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً} [البقرة: 125] والجهاد {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة} [البقرة: 214] إلى قوله: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم} [البقرة: 216] وذلك إشارة إلى أن هذا الدين تام لا زيادة فيه ولا نقص لأن النبي الذي أرسل ختام الأنبياء، وتمام الرسل الأصفياء. ولما كان قوم عاد قد تكبروا بشدتهم وقوتهم، وكانت حال قريش قريبة من ذلك لقولهم إنهم أمنع العرب وأقواهم وأجمعهم للكمالات وأعلاهم، كرر ذلك في قصتهم مرتين زيادة في تذكير قريش وتحذيرهم ولا سيما وقد كان بدء عذابهم من بلدهم مكة المشرفة كما هو مشروح في قصتهم، وكرر الأمر بالذوق في قصة لوط عليه السلام لأنهم عذبوا بما يردع من كان له قلب بالطمس، فلما لم ينفعهم ذلك أتاهم أكبر منه فكانوا كأمس الدابر، فلكل مرة من العذاب من الأمر

بالذوق، وخصــوا بالأمر بالذوق لما في فاحشــتهم الخبيثة ما يســتلذونه، وقد عم عذاب هذه الأمم جميع الجهات بما لقوم نوح ولوط عليهما الســـــلام من جهة الغرق بالماء الماطر وحجارة الســــجيل ومن البحث من الماء النابع والخسف، وما في عموم عذابهم من استغراق بقية الجهات– والله الهادي.

ولما انقضـــت قصـــة نوح عليه الســـلام على هذا الهول العظيم، كان ذلك موجباً للسامع أن يظن أنه لا يقصر أحد بعدهم وإن لم يرسل برسول فكيف إذا أرســل، فتشــوف إلى علم ما كان بعده هل كان كما ظن أم رجع الناس إلى طباعهم؟ وكانت قصة عاد أعظم قصة جرت بعد قوم نوح عليه السلام فيما يعرفه العرب فيصـــــلح أن يكون واعظاً لهم، وكان عذابهم بالريح التي أهلكتهم ونســفت جبالهم التي كانت في محالهم من الرمال المتراكمة، فنقلها إلى أمكنة أخرى أقرب دليل إلى أنه تعالى يســير الجبال يوم الدين، هذا إلى ما في صــفها الخارج عن العوائد من تصــوير النفخ في الصــور تارة للقيامة وتارة للأحياء، فأجيب بقوله: {كذبت عاد} أي أوقعت التكذيب العام المطلق الذي أوجب تكذيبهم برسولي هود عليه السلام في دعوته لهم إليّ وإنذاره لهم عذابي.

ولما كان عادة الملوك أو بعضـــــهم أنه إذا أهلك قوماً كثيرين من جنده نجا ناس مثلهم بمثل ذنوبهم أن يرفع بهم، ويســـتألفهم لئلا يهلك جنده، فيختل ملكه، عقب الإخبار بتكذبيهم الإعلام بتعديهم لأنه لا يبالي بشـــيء لأن كل شـــيء في قبضـــته، ولما كان تكذيبهم إلا بإرادته كا أن عذابه بمشـيئته، قال مســبباً عن ذلك: {فكيف} أي فعلى الأحوال لأجل تكذيبهم {كان عذابي لهم

ونذر *} أي وإنذاري إياهم بلســان رســولي، وكرر في آخر قصــتهم هذا الاستخبار، فكان في قصتهم مرتين كما تقدم من سره- والله أعلم.

### ▲ تفسير الآيات رقم [19- 26]

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19)

تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20)

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21)

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23)

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24)

أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25)

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26)}

ولما ذكر تكذيبهم وأعقبه تعذيبهم، علم الســامع أنه شـديد العظمة فاسـتمطر أن يعرفه فاســتأنف قوله، مؤكداً تنبيهاً على أن قريشــاً أفعالهم في التكذيب كأفعالهم كأنهم يكذبون بعذابهم: {إنا أرســـلنا} بعظمتنا، وعبر بحرف الاســتعلاء إعلاماً بالنقمة فقال: {عليهم ريحاً} ولما كانت الريح ربما كانت عياناً، وصفها بما دل على حالها فقال: {صرصراً} أي شديد البرد والصوت. ولما كان مقصــود الســورة تقريب قيام الســاعة ووصــف سـيرهم إلى الداعي بالإسـراع، ناسـب أن يعبر عن عذابهم بأقل ما يمكن، فعبر باليوم الذي يراد به الجنس الشــامل للقليل والكثير وقد يعبر به عن مقدار من الزمان يتم فيه أمر ظاهر ســـواء لحظة أو أياماً أو شـــهوراً أو كثيراً من ذلك أو أقل كيوم

البعث ويوم بدر ويوم الموت بقوله تعالى :- {إلى ربك يومئذ المســـاق}- [القيامة: 35]: {في يوم} وأكد شؤمها بذم زمانها فقال: {نحس} أي شديد القباحة، قيل: كان يوم الأربعاء آخر الشـــهر وهو شـــوال لثمان بقيت إلى غروب الأربعاء، وحقق لأن المراد باليوم الجنس لا الواحد بالوصــف فقال: {مستمر *} أي قوي في نحوستـه نافذ ماض فيما أمر به من ذلك شـديد أســبابه، موجود مرارته وجوداً مطلوباً من مرســله في كل وقت، مســتحكم المرارة قويها دائمها إلى وقت إنفاذ المراد.

ولما علم وصـفها في ذاتها، أتبعه وصـفها بما يفعل فيه فقال: {تنزع} أي تأخذ من الأرض بعضهم من وجهها وبعضهم من حفر حفروها ليتمنعوا بها من العذاب، وأظهر موضع الإضمار ليكون نصاً في الذكور، والإناث فعبر بما هو من النوس تفضيلاً لهم فقال: {الناس} الذين هم صور لا ثبات لهم بأرواح التقوى، فتطيرهم بين الســماء والأرض كأنهم الهباء المنثور، فتقطع رؤوسهم من جثثهم وتغير ألوانهم تعتيماً لهم إلى السواد، ولذا قال: {كأنهم} أي حين ينزعون فيلقون لا أرواح فيهم كأنهم {أعجاز} أي أصـول {نخل} قطعت رؤوسها. ولما كان الحكم هنا على ظاهر حالهم، وكان الظاهر دون الباطن، حمل على اللفظ قوله: {منقعر *} أي منقصـف أي منصـرع من أسفل قعره وأصل مغرسه، والتشبيه يشير إلى أنهم طوال قد قطعت رؤوسهم، وفي الحافة وقع التشـبيه في الباطن الذي فيه الأعضـاء الرئيسـة، والمعاني اللطيفة، فأنث الوصف حملاً على معنى النخل لا للطفها- والله أعلم.

ولما طابق ما أخبر به من عذابهم ما هو له به أولاً، أكد ذلك لما تقدم من سـره فقال مسـبباً عنه مشـيراً إلى أنه لشـدة هوله مما يجب السـؤال عنه: {فكيف كان} أيها السـائل، ولفت القول إلى الإقرار تنبيهاً للعبيد على المحافظة على مقام التوحيد: {عذابي} لمن كذب رسـلي {ونذر *} أي وإنذاري أو رسلي في إنذارهم هل صدق.

ولما أتم سـبحانه تحذيره من مثل حالهم بأمر ناظر أتم نظر إلى تدبير ما في سورة الذاريات، أتبع ذلك التنبيه على أنه ينبغي للسامع أن يتوقع الحث على ذلك، فقال مؤكداً لما لأكثر السـامعين من التكذيب بالقال أو بالحال معلماً أنه سـهل طريق الفرار من مثل هذه الفتن الكبار إليه، وسـوى من الاعتماد عليه، عائداً إلى مظهر العظمة إيذاناً بأن تيسـير القرآن لما ذكر من إعجازه لا يكون إلا لعظمة تفوت قوى البشـر، وتعجز عنها القدرة {ولقد يسرنا} على ما لنا من العظمة في الذات والصفات {القرآن} الجامع الفارق كله وما أشارت إليه هذه القصة من مفصله {للذكر} للحفظ والشرف والفهم والتدبير والوعظ والاتعاظ ما صـرفنا فيه من أنواع الوعظ مع التنبيه للحفظ بالإيجاز وعذوبة اللفظ وقرب الفهم وجلالة المعاني وجزالة السـبك وتنويع الفنون وتكثير الشعب وإحكام الربط {فهل من مدَّكر *} أي تسبب عن هذا الأمر العظيم الذي فعلناه أنه موضع السؤال عن أحوال السامعين: هل فيهم من يقبل على حفظه ثم تدبره وفهمه ويتعظ بما حل بالأمم السـالفة، ويتذكر جميع ما صرف من الأقوال وينزلها على نفسه وما لها من الأحوال، ويجعل ذلك لوجهنا فيلقيه بتشريفه به أمر دنياه وأخراه.

ولما كان هذا موضـــــع الإقبال على تدبر مواعظ القرآن، وكان ثمود أعظم وعظ كان بعد عاد لما في صيحتهم الخارجة عن العهود من تصوير الساعة بنفختيها المميتة ثم المحيية، وقال مؤنثاً فعلهم إشــــارة إلى ســــفول هممهم وسـفول فعلهم معلماً أن من كذب هلك- على طريق الجواب لمن لعله يقول استبعاداً لتكذيب بعد ما جرى في القصتين الماضيتين من التعذيب: {كذبت ثمود} أي قوم صالح {بالنذر *} الإنذارات والمنذرين كلهم لأنهم شرع واحد، ثم علل ذلك وعقبه بقوله معلماً بالضمير أن المباشر بهذا الكفر رجالهم لئلا يظن أنهم نســـاء فقط: {فقالوا} منكرين لما جاءهم من الله غاية الإنكار: {أبشراً} إنكاراً لرسالة هذا النوع ليكون إنكار النبوة إنكاراً لنبوة نبيهم على أبلغ الوجوه، وأعظم الإنكار بقولهم مقدمين عدم الانفراد عنهم لخصوصيته: {منا} أي فلا فضل له علينا فما وجه اختصاصه بذلك من بيننا، وزادوا ذلك تأكيداً فقالوا: {واحداً} أي ليس معه من يؤيده، ثم فسـر الناصـب لقوله: {بشـراً} بقوله: {نتبعه *} أي نجاهد نفســنا في خلع مألوفنا وخلاف آبائنا والإقرار على أنفســنا بسـخافة العقل والعراقة في الجهل ونحن أشــد الناس كثرة وقوة وفهماً ودراية، ثم استنتجوا عن هذا الإنكار الشديد قولهم مؤكدين الاستشعار بأن كلامهم أهل لأن يكذب: {إنا إذاً} أي إن اتبعناه {لفي ضلال} أي ذهاب عن الصواب محيط بنا {وسعر *} أي تكون عاقبتنا في ذلك الضلال الكون في أوائل أمر لا ندري عاقبته، فإنه لم يجرب ولم يختبر ولم يمعن أحد قبلنا سلفاً لنا فيجرنا ذلك إلى جنون وجوع ونار كما يكون من يأتوه في القفار في أنواع من الحر بتوقد حر الجبال وحر الضلال وحر الهموم والأوجال- وذلك

من النار التي توعدنا بها، وهو معنى تفسير ابن عباس رضي الله عنهما له بالعذاب، وجعل سفيان بن عيينه له جمع سعير، والمعنى إنا نكون إذا اتبعناك كما تقول جامعين بين الضلال والعذاب بسائر أنواعه.

ولما كان فيما قالوه أعظم تكذيب مدلول على صحته في زعمهم بما أمؤوا إليه من كونه آدمياً مثلهم، وهو مع ذلك واحد من أحادهم فليس هو بأمثلهم وهو منفرد فلم يتأيد فكره بفكر غيره حتى يكون موضع الوثوق به، دلوا عليه بأمر آخر ساقوه أيضاً مساق الإنكار، وأموؤا بالإلقاء إلى أنه في إسراعه كأنه سقط من علو فقالوا: {أألقي} أي أنزل بغتة في سرعة لأنه لم يكن عندهم في مضمار هذا الشأن ولم يأتمروا فيه قبل إتيانه به شيء منه بل أتاهم به بغتة في غاية الإسراع. ولما كان الإلقاء يكون للأجسام غالباً، فكان لدفع هذا الوهم تقديم النائب عن الفاعل أولى بخلاف ما تقدم في ص فقالوا: {الذكر} أي الوحي الذي يكون به الشرف الأعظم، وعبروا بعلى إشارة إلى أن مثل هذا الذي تقوله لا يقال إلا عن قضاء غالب وأمر قاهر فقال: {عليه} ودلوا على وجه التعجب والإنكار بالاختصاص بقولهم: {من بيننا} أي وبيننا من هو أولى بذلك سناً وشرفاً ونبلاً.

ولما كان هذا الاستفهام لكونه إنكارياً بمعنى النفي، أضربوا عنه بقولهم على وجه النتيجة عطفاً على ما أفهمه الاستفهام من نحو: ليس الأمر كما زعم: {بل هو} لما أبديناه من الشبه {كذاب} أي بليغ في الكذب {أشر *} أي مرح غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه بمرح وتجبر وبطر، ونشط في ذلك

حتى صار كالمنشار الذي هو متفرغ للقطع مهيأ له خشن الأمر سيئ الخلق والأثر فهو يريد الترفع.

ولما كان هذا غاية الذم لمن يســـتحق منهم غاية المدح، أجاب تعالى عنه موعظة لعباده لئلا يتقولوا ما يعلمون بطلانه أو يقولوا ما لا يعلمون صــحته بقوله: {سيعلمون} بوعد لا خلف فيه. ولما كان المراد التقريب لأنه أقعد في التهديد، قال : { غداً } أي في الزمن الآتي القريب لأن كل ما حقق إتيانه قريب عند نزول العذاب في الدنيا ويوم القيامة، وقراءة ابن عامر وحمزة ورويس عن يعقوب بالخطاب التفات يعلم بغاية الغضب {من الكذاب الأشر *} أي الكذب والأشر وهو احتقار الناس والاستكبار على ما أبدوه من الحق مختص به ومقصـــود عليه لا يتعداه إلى مرميه وذلك بأنهم جعلوا الكذب ديدنه ولم يتعدهم حتى يدعى شيء منه لصالح عليه الصلاة والسلام، فكان الكلام معيناً لهم في الكذب قاصـــراً عليهم بســـياقه على هذا الوجه المبهم المنصـــف الذي فيه من روعة القلب وهز النفس ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى، وكلما كان الإنسان أسلم طبعاً وأكثر علماً كان له أعظم ذوقاً.

### ▲ تفسير الآيات رقم [27– 31]

{إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28)

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29)

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30)

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31)}

ولما علم من هذا أنه سبحانه فصل الأمر بينهم، تشوف السامع إلى علم ذلك فقال تعالى مستأنفاً دالاً بأنهم طالبوه بآية دالة على صدقه: {إنا} أي بما لنا من العظمة {مرسلو الناقة} أي موجدوها ومخرجوها كما اقترحوا من حجر أهلناه لذلك وخصصناه من بين الحجارة دلالة على إرسالنا صالحاً عليه السلام: مخصصين له من بين قومه، وذلك أنهم قالوا لصالح عليه السلام: نريد أن نعرف المحق منا بأن ندعو آلهتنا وتدعو إلهك فمن أجابه إلهه علم أنه المحق، فدعوا أوثانهم فلم تجبهم، فقالوا : ادع أنت، فقال : فما تريدون؟ قالوا: تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة تبعر عشراء، فأجابهم إلى ذلك بشرط الإيمان، فوعدوه بذلك وأكدوا فكذبوا بعد ما كذبوا في أن آلهتهم تجيبهم، وصدق هو صلى الله عليه وسلم في كل ما قال فأخبره ربه سبحانه أنه يجيبهم إلى إخراجها {فتنة لهم} أي امتحاناً يخالطهم به فيميلهم عن حالتهم التي وعدوا بها ويجيبهم عنها، وسبب سبحانه عن ذلك أمره بانتظارهم فيما يصنعون بعد إخراجهم لما توصلهم إليه عواقب الفتنة فقال: {فارتقبهم} أي كلف نفسك انتظارهم فيما يكون لهم جزاء على أعمالهم انتظار من يحرسهم وهو عالم عليم فإنهم واصلون بأعمالهم إلى الداهية التي تسمى بأم العرقوب ليكونوا كمن جعل في رقبته، ودل بصيغة الافتعال على أنه يكون له منه أذى بالغ قبل انفصال النزاع فقال: {واصطبر *} أي عالج نفسك واجتهد في الصبر عليهم {ونبئهم} أي أخبرهم إخباراً عظيماً بأمر عظيم، وهو أن الماء الذي يشربونه وهو ماء بئرهم {أن الماء قسمة بينهم} أي بين ثمود وبين الناقة، غلب عليها ضمير من يعقل، يعني إذا

بعثناها كان لهم يوم لا تشـــاركهم فيه في الماء، ولها يوم لا تدع في البئر قطرة يأخذها أحد منهم، وتوسع الكل بدل الماء لبناً. ولما أخبر بتوزيع الماء، أعلم أنه على وجه غريب بقوله استئنافاً: {كل شرب} أي من ذلك وحظ منه ومورد البرو وقت يشــرب فيه {محتضـــر *} أي أهل لما فيه من الأمر العجيب أن يحضره الحاضرون حضوراً عظيماً، وتتكلف أنفسهم لذلك لأنه صار في كثرته وحسنه كماء الحاضرة للبادية وتأهل لأن تعارضه حاضروه من حسنه ويرجعوا إليه وأن يجتمع عليه الكثير ويعودوا أنفسهم عليه.

ولما كان التقدير: فكان الأمر كما ذكرنا، واستمر الأمد الذي ضربنا فافتتنوا كما أخبرنا {فنادوا} بسبب الفتنة {صاحبهم} قذار بن سالف الذي انتدبوه بطراً وأشراً لقتل الناقة وكذبنا فيها بوعدهم الإيمان وإكرامها بالإحسان وهو أشقى الأولين {فتعاطى} أي أوقع بســـبب ندائهم التعاطي الذي لا تعاطي مثله، فتناول ما لا يحق له أن يتناوله بسبب الناقة وهو سيفه بيده قائماً في الأمر الناشـئ عن هذا الأخذ على كل حال، ورفع رأســه بغاية الهمة ومد يديه مداً عظيماً ورفعها وقام على أصـــابع رجليه حين عاطوه ذلك أي ســـألوه فيه فطاوعهم وتناول الناقة بذلك الســيف غير مكترث ولا مبال {فعقر *} أي فتســـبب عن هذا الجد العظيم أن صـــدق فيما أثبت لهم الكذب في الوعد بالإحسان إليها والأشر، وهو إيقاع العقر الذي ما كان في ذلك الزمان عقر مثله وهو عقر الناقة التي هي آية الله وإهلاكها.

ولما وقع كذبهم على هذا الوجه العظيم المبني على غاية الأشـــر، حقق الله تعالى صدقه في توعدهم على تقدير وقوع ذلك، فأوقع عذابهم سبحانه على

وجه هو من عظمه أهل لأن يتساءل عنه، فنبه سبحانه على عظمة بإيراده في أسلوب الاستفهام مسبباً عن فعل الأشقى فقال: {فكيف كان} وحافظ على مقام التوحيد كما مضى فقال: {عذابي} أي كان على حال ووجه هو أهل لأن يجتهد في الإقبال على تعرفه والسؤال عنه {ونذر *} أي إنذاري. ولما علم تفرغ ذهن السائل الواعي، استأنف قوله مؤكداً إشارة إلى أن عذابهم مما يستلذ وينجح به، وإرغاماً لمن يستبعد النصيحة الواحد بفعل مثل ذلك، وإعلاماً بأن القدرة على عذاب من كذب من غيرهم كهي على عذابهم فلا معنى للتكذيب: {إنا} بما لنا من العظمة {أرسلنا} إرسالاً عظيماً، ودل على كونه عذاباً بقوله: {عليهم صيحة} وحقر شأنهم بالنسبة إلى عظمة عذابهم بقوله تعالى: {واحدة} صاحها عليهم جبريل عليه السلام فلم يكن بصيحته هذه التي هي واحدة طاقة، وتلاشى عندها صياحهم حين نادوا صاحبهم لعقر الناقة. ولما تسبب عنها هلاكهم قال: {فكانوا} كوناً عظيماً {كهشيم المحتظر *} أي محطمين كالشجر اليابس الذي جعله الراعي ومن في معناه ممن يجعل شيئاً يأوي إليه ويحتفظ به ويحفظ به ماشيته في وقت ما لا يقاله (؟) وهو حظيره أي شيء مستدير مانع في ذلك الوقت لمن يدخل إليه فهو يتهشم ويتحطم كثير منه وهو يعمله فتدوسه الغنم ثم تتحطم أولاً فأولاً، وكل ما سقط منه شيء فداسته الغنم كان هشيماً، وكأنه الحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته.

▲ تفسير الآيات رقم [32- 39]

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33)
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)
وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37)
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38)
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39)}

ولما كان التقدير : فلقد أبلغنا في الموعظة لكل من يســـمع هذه القصــــة، عطف عليه قوله مؤكداً لأجل من يعرض عن هذا القرآن ويعلل إعراضـــه عنه بصعوبته: {ولقد يسرنا} أي على ما لنا من القدرة والعظمة {القرآن} أي الكتاب الجامع لكل خير، الفارق بين كل ملبس {للذكر} أي الحفظ والتذكير والتذكر وحصــول النباهة به والشــرف إلى الدارين. ولما كان هذا غاية في وجوب الإقبال عليه لجميع المتولين، قال: {فهل من مدكر *} أي ناظر فيه بســبب قولنا هذا بعين الإنصــاف والتجرد عن الهوى ليرى كل ما أخبرنا به فنعينه عليه. ولما كان النذير : كأنه قال المنذرين لم يتعظوا به فزاد في وعظهم، وكانت قصـــة لوط عليه الســـلام مع قومه أعظم ما كان بعد ثمود مما تعرفه العرب بالأخبار ورؤية الآثار، ومع ما في قصـــتهم من تصـــوير الساعة من تبديل الأرض غير الأرض، استأنف قوله: {كذبت قوم لوط} أي وهم في قوة عظيمة على ما يحاولونه وإن كانوا في تكذيبهم هذا في ضــعف وقوع النســـاء عن التجرد مما دل عليه تأنيث الفعل بالتاء وكذا ما قبلها من

القصـــص {بالنذر *} أي الإنذار والإنذارات والمنذرين، ودل على تناهي القباحة في مرتكبهم بتقديم الإخبار عن عذابهم فقال: {إنا} أي بما لنا من العظمة {أرسلنا} ودل على أنه إرسال إهانة بقوله: {عليهم} ودل على هوانهم وبلوغ أمره كل ما يراد به بقوله: {حاصـباً} أي ريحاً ترمي بحجارة هي دون ملء فكانت مهلكة لهم محرقة خاسـفة مفرقة {إلا آل لوط} وهم من آمن به وكان بحيث إذا رأيته فكأنك رأيت لوطاً عليه السلام لما يلوح عليه من أفعاله والمشي على منواله في أقواله وأحواله وأفعاله.

ولما كان اسـتثناؤهم مفهماً إنجاءهم مع التجويز لإرسـال شـيء عليهم غير مقيد بما ذكر، قال مسـتأنفاً جواباً لمن كأنه قال: ما حالهم: {تجيناهم} أي تنجية عظيمة بالتدريج، وذكر أول الشـروع لإنجاءهم فقال: {بسـحر *} أي بآخر ليلة من الليالي وهي التي عذب فيها قومه، فكأنه تنكيره لأنا لا نعرف تلك الليلة بعينها، ولو قصدت سحر الليلة التي صبحت منها كان معرفة لا ينصرف، والسحر: السدس الأخير من الليل: الوقت الذي يكون فيه الإنسان لا سـيما النسـاء والأطفال في غاية الغفلة بالاسـتغراق في النوم، ويفتح الله فيها أبواب السـماء باذن الدعاء ليحصـل منه الإجابة لأن الملوك إذا فتحوا أبوابهم كان ذلك إذناً للناس في الدخول لقضـــاء الحوائج، فالنزول وفتح الأبواب كناية عن ذلك- والله سبحانه وتعالى متعال عن حاجة إلى نزول أو فتح باب أو غير ذلك.

ولما كان المراد من الموعظين الطاعة التي هي سـبب النجاة، فلذا قال ذاكراً للإنعام معبراً عنه بغاية المقصـــود منه معرفاً أن انتقامه عدل ومعافاته

فضل، لأن أحداً لا يقدر أن يكافئ نعمه ولا نعمة منها، معللاً للنجاة: {نعمة من عندنا} أي عظيمة غريبة جداً لشـــكرهم، ولما كان كأنه قيل: هل هذا مختص بهم.

. . الإنجاء من بين الظالمين وهو مختص بهم، أجاب بقوله: {كذلك} أي مثل هذا الإنجاء العظيم الذي جعلنا جزاء لهم {نجزي} بقدرتنا وعظمتنا {من شـــكر *} أي أوقع الشـــكر بجميع أنواعه فآمن وأطاع ليس. . . بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كائناً من كان من ســـوقة أو ســـلطان جائر شجاع أو جبان، فاننا عليه بالإنجاء بعد هلاك عدوه، قال القشيري: والشكر على نعم الدفع أتم من الشـــكر على نعم النفع، ولا يعرف ذلك إلا كل موفق كيس فالآية من الاحتباك: ذكر الإنعام أولاً– لأنه الســـبب الحقيقي– دليلاً على حذفه ثانياً، والشكر ثانياً– لأنه السبب الظاهر– دليلاً على حذفه أولاً.

ولما كان التقدير دفعاً لعناد... استشراف السامع إلى ما كان من حاله صلى الله عليه وسـلم معهم قبل العذاب: لقد بالغ في شـكرنا بوعظهم ونصـحهم ودعائهم إلنيا صرفاً لما أنعمنا به عليه من الرسالة في أتم مواضعه، عطف عليه إيماء إليه قوله، مؤكداً لأن تمادي المحذور من العذاب على الإقامة في موجبه يكاد أن لا يصـدق: {ولقد أنذرهم} أي رسـولنا لوط عليه السـلام {بطشـتنا} أي أخذتنا لهم المقرونة بشـدة ما لنا من العظمة، ووحد إشـارة إلى أنه لا يستهان بشـيء من عذابه سبحانه بل الأخذة الواحدة كافية لما لنا من العظمـة فهي غير محتـاجـة إلى التثنيـة، ودل على أن إنـذاره كـان جـديراً بالقبول لكونه واضـــح الحقيقة بما ســـبب عن ذلك من قوله: {فتماروا} أي

تكلفوا الشـك الواهي {بالنذر *} أي الإنذار مصـدراً والإنذارات أو المنذرين حتى أداهم إلى التكذيب، فكان سبباً للأخذ.

ولما كان ترك الاحتياط في إعمال الحيلة في وجه الخلاص من إنذار النذير عظيم العرافة في السفه دل على أنهم تجاوزوا ذلك إلى انتهاك حرمة النذير، فقال مقسـماً لأن مثل ذلك لا يكاد يقع فلا يصـدق من حكاه: {ولقد راودوه} أي زادوا في التكذيب الموجب للتعذيب أن عالجوا معالجة طويلة تحتاج إلى فتل ودوران {عن ضـيفه} ليسـلمهم إليهم وهم ملائكة في هيئة شـباب مرد، وأفردوا وإن كان المراد الجنس اسـتعظاماً لذلك لو كان الضـيف واحداً {فطمسنا} أي فتسبب عن مراودتهم أن طمسنا بعظمتنا {أعينهم} فسويناها مع سائر الوجوه فصارت بحيث لا يرى لها شق، قال البغوي: هذا قول أكثر المفسـرين، وذلك بصـفقة صـفقها لهم جبريل عليه الصـلاة والسـلام، وقال القشـيري: مسـح بجناحيه على وجوههم فعموا ولم يهتدوا للخروج، وقال ابن جرير: والعرب تقول: طمست الريح الأعلام- إذا دفنتها بما يسفي عليها من التراب.

فانطلقوا هراباً مسـرعين إلى الباب لا يهتدون إليه ولا يقعون عليه بل يصـادمون الجدران خوفاً مما هو أعظم من ذلك وهم يقولون: عند لوط أسـحر الناس، وما أدتهم عقولهم أن يؤمنوا فينجوا أنفسـهم مما حل بهم، قال القشيري: وكذلك أجرى الله سبحانه سنته في أوليائه بأن يطمس على قلوب أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ويخلصـهم من كيدهم. ولما كان... أول عذابهم قال: {فذوقوا} أي فتسبب عن ذلك أن قال قائل عن الله

بلسان القال أو الحال: أيها المكذبون ذوقوا بسبب تكذيبكم لرسلي في إنذارهم {عذابي ونذر *} أي وعاقبة إنذاري على ألسنة رسلي.

ولما كان بقاؤهم بعد هذا على حال كفرهم عجباً إذ العادة قاضـــــية بأن من أخذ ارعوى ولو كان أفجر الخلق، وســـأل العفو عنه صـــدقاً أو كذباً خداعاً ومكراً ليخلص مما هو فيه . . . بثباتهم على تكذيبهم حتى عذبوا على قرب العهد فقال مقســماً : {ولقد صـــبحهم} أي أتاهم في وقت الصـــباح، وحقق المعنى بقوله: {بكرة} أي في أول النهار العذاب، ولو كان أول نهارك الذي أنت به كان معرفة فامتنع . . . {عذاب} أي قلع بلادهم ورفعها ثم قلبها، وحصـــبها بحجارة من نار وخســـفها وغمرها بالماء المنتن الذي لا يعيش به حيوان {مستقر *} أي ثابت عليهم غير مزايل بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس فإنه أهلكهم فاتصـل بعذاب البرزخ المتصـل بعذاب القيامة المتصـل بالعذاب الأكبر في الطبقة التي تناســـــب أعمالهم من عذاب النار فقال لهم لســـان الحال إن لم ينطلق لســـان القال: {فذوقوا} بســـبب أعمالكم {عذابي ونذر *}.

▲ تفسير الآيات رقم [40- 44]

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41)

كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43)

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)}

ولما كرر هذا التكرير، علم منه أن سـبب العذاب التكذيب بالإنذار لأي رسول كان، وكان استئناف كل قصة منبهاً على أنها أهل على حدتها لأن يتعظ بها، علم أن التقدير: فلقد بلغت هذه المواعظ النهاية لمن كان له قلب، فعطف عليه قوله مذكراً بالنعمة التي لا عدل لها: {ولقد يسـرنا} أي تعالى جدنا وتناهى مجدنا {القرآن} الجامع الفارق {للذكر} ولو شئنا لأعليناه بما لنا من العظمة إلى الحد حتى تعجز القوي عن فهمه، كما أعليناه إلى رتبة وقفت القوى عن معارضـته في نظمه، أو مطلع لا يتشـبث بأذيال أدنى علمه، إلا الأفراد من حذاق العباد، فكيف بما فوق ذلك.

ولما كانوا مع ذلك واقفين عن المبادرة إليه والإقبال عليه، قال تلطفاً بهم وتعطفاً عليهم مسبباً عن ذلك: {فهل} وأكد فقال: {من مدكر *} مفتك لنفسه من مثل هذا الذي أوقع فيه هؤلاء أنفسهم ظناً منهم أن الأمر لا يصل إلى ما وصل إليه جهلاً منهم وعدم اكتراث بالعواقب.

ولما كان الآخر ينبغي له أن يحذر ما وقع للأول، وكان قوم فرعون قد جاء بعد قوم لوط عليه السـلام، فكان ربما ظن أنهم لم ينذروا لأن من علم أن العادة جرت أن من كذب الرسل هلك أنكر أن يحصل ممن تبع ذلك تكذيب، قال مقسماً: {ولقد جاء آل فرعون} أي ملك القبط بمصر وأشرافه الذين إذا

رؤوا كان كأنه رئي فيهم لشـــدة قربهم منه وتخلقهم بأخلاقهم {النذر *} أي الإنذارات والمنذرون بنذارة موسـى وهارون عليهما السـلام، فإن نذارة بعض الأنبياء كنذارة الكل لأنـه يأتي أحد منهم إلا ولـه من الآيات ما مثلـه آمن عليه البشـــر، والمعجزات كلها متســـاوية في خرق العادة، وكان قد أنذرهم يوسـف عليه السـلام، ولما كان كأنه قيل: فما فعلوا عند مجيء ذلك إليهم، قال: {كذبوا} أي تكذيباً عظيماً متسـهينين {بآياتنا} التي أتاهم بها موســى عليه السلام وغيرها لأجل تكذيبهم بها على ما لها من العظمة المعرفة قطعاً عن أنها من عندنا.

ولما كانت خوارق العادات كما مضـــى متســـاوية الأقدام في الدلالة على صدق الآتي بها، وكانوا قد صمموا على أنه مهما أتاهم بآية كذبوا بها، كانوا كأنهم قد أتتهم كل آية فلذلك قال: {كلها} وسبب عن ذلك القول: {فأخذناهم} أي بما لنا من العظمة بنحو ما أخذنا به قوم نوح من الإغراق {أخذ عزيز} أي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء {مقتدر *} أي لا يعجل بالأخذ لأنه لا يخاف الفوت ولا يخشـــى معقباً لحكمه، بالغ القدرة إلى حد لا يدرك الوصـــف كنهه لأن صـــيغة الافتعال مبناها على المعاجلة من عاجل فعلاً أجهل نفســه فيه، فكان على أتم الوجوه، وهذه الغاية هي المرادة ليس غيرها، فهو تمثيل لأنه ســـبحانه يخاطبنا بما نعبده، وبهذه المبالغة فلم يلفت منهم أحد، وقد ختمت القصص بمثل ما افتتحت به من عذاب المفسدين بالإغراق ليطابق الختم البدء، وكانت نجاة المصـــلحين من الأولين بالســفينة، وكانت

نجاة المصلحين من الآخرين بأرض البحر كانت هي سفينتهم، ليكون الختم أعظم من البدء كما هو شأن أهل الاقتدار.

ولما بلغت هذه المواعظ الانتهاء، وعلت أقدامها على رتبة السـها، ولم يبين ذلك كفار قريش عن شـرادهم، ولا فتر من جحودهم وعنادهم، كان لسـان حالهم قائلاً: إنا لا نخاف شيئاً من هذا، فكان الحال مقتضياً لأن يقال لهم إلزاماً بالحجة: {أكفاركم} الراسـخون منكم في الكفر الثابتون عليه يا أيها المكذبون لهذا النبي الكريم الساترون لشموس دينه {خير} في الدنيا بالقوة والكثرة أو الدين عند الله أو عند الناس {من أولائكم} أي الكفار أي الكفار العظماء الجبابرة الأشـداء الذين وعظناكم بهم في هذه السـورة ليكون ذلك سـبباً لافتراق حالهم منهم فيأمنوا العذاب مع جامع التكذيب وإن لم يكن لهم براءة من الله {أم لكم} أجمعين دونهم كفاركم وغير كفاركم {براءة} من العذاب من الله {في الزبر *} أي الكتب الآتية من عنده أأمنتم بها من العذاب مع أنهم خير منكم، فالآية من الاحتباك: أثبت الخيرية أولاً دليلاً على حذفها ثانياً، والبراءة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً.

ولما بلغوا إلى هذا الحد من التمادي في الكفر مع المواعظ البالغة والاستعطاف المكين، استحقوا أعظم الغضب، فأعرض عنهم الخطاب إيذاناً بذلك وإهانة لهم واحتقاراً وإقبالاً على النبي صلى الله عليه وسلم تسلية فقال عاطفاً على ما تقديره: أيدعون جهلاً ومكابرة شـيئاً من هذين الأمرين: {أم يقولون} أي هؤلاء الذي أنت بين أظهرهم تعاملهم باللين في القال والقيل والصفح الجميل امتثالاً لأمرنا تعظيماً لقدرك فاستهانوا بك: {نحن جميع} أي

جمع واحد مبالغ في اجتماعه فهو في الغاية من الضـــم فلا افتراق لـه {منتصـــر *} أي على كل من يناويه لأنهم على قلب رجل واحد، فالإفراد للفظ «جميع» ولإفهام هذا المعنى، أو أن كل واحد محكوم له بالانتصار.

### ▲ تفسير الآيات رقم [45- 48]

{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)
بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47)
يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)}

ولما كان لسـان الحال ناطقاً بأنهم يقولون: هذا كله فأي الفريقين خير مقاماً وأحسـن ندياً ونحوها، وقال بعضـهم: لئن بعثنا لأوتينا وولداً، ولا شـك أنهم كانوا في غاية الاسـتحالة لغلبة المؤمنين لهم على قلتهم وضـعفهم، اسـتأنف الجواب بقوله: {سـيهزم} بأيسـر أمر من أي هازم كان بوعد لا خلف فيه، وقراءة الجمهور بالبناء للمفعول مفهمة للعظمة بطريقة كلام القدرين، فهي أبلغ من قراءة يعقوب بالنون والبناء للفاعل الدالة على العظمة صـــريحاً {الجمع} الذي تقدم أنه بولغ في جمعه فصـدق الله وعده وهزموا في يوم بدر وغيره في الدنيا عن قريب، ولم يزالوا يضـــعفون حتى اضـــمحل أمرهم وزال بالكلية سرهم، وهي من دلائل النبوة البينة {ويولون الدبر *} أي يقع توليتهم كلهم بهذا الجنس بأن يكون والياً لها من منهم مع الهزيمة لأنه لم يتولهم في حال الهزيمة نوع مســـكنة يطمعون بها في الخيار، وكل من إفراد الدبر والمنتصر وجمع المولين أبلغ مما لو وضع غيره موضعه وأقطع للتعنت.

ولما ونقع هذا في الدنيا، وكان في يوم بدر، وكان ذلك من أعلام النبوة، وكان ربما ظن ظان أن ذلك هو النهاية، كان كأنه قيل : ليس ذلك الموعد الأعظم: {بل الساعة} القيامة التي يكون فيها الجمع الأعظم والهول الأكبر {موعدهم} أي الأعظم للجزاء المتوعد به {والساعة أدهى} من كل ما يفرض وقوعه في الدنيا، أفعل تفضيل من الداهية وهي أمر هائل لا يهتدي لدوائه {وأمر *} لأن عذابها للكافر غير مفارق ومزايل. ولما أخبر عن الساعة بهذا الإخبار الهائل، علله مقسماً لأهلها مجملاً بعض ما لهم عند قيامها بقوله مؤكداً لما أظهروا من التكذيب: {إن المجرمين} أي القاطعين لما أمر الله بأن يوصل {في ضلال} أي عمى عن القصد بتكذيبهم بالبعث محيط بهم مانع من الخلاص من دواهي الساعة وغيرها، ومن الوصول إلى شيء من مقاصدهم التي هم عليها الآن معتمدون {وسعر} أي نيران تضطرم وتتقد غاية الاتقاد {يوم} أي في ذلك اليوم الموعود به {يسحبون} أي في الساعة دائماً بأيسر وجه إهانة لهم من أي صاحب كان {في النار} أي الكاملة في النارية {على وجوههم} لأنهم في غاية الذل والهوان جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله تعالى، مقولاً لهم من أي قائل اتفق: {ذوقوا} أي لأنهم لا منعة لهم ولا حمية عندهم بوجه {مس سقر *} أي ألم مباشرة الطبقة النارية التي تلفح بحرها فتلوح الجسم وتذيبه فيسيل ذهنه... وعصاراً كما يسيل الدبس وعصارة الرطب فتسمى النخلة بذلك مسقاراً.

▲ تفسير الآيات رقم [49- 55]

{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49)

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52)
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)
فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)}

ولما أخبر بقيام الساعة وما يتفق لهم فيها جزاء لأعمالهم التي قدرها عليهم وهي ستر فرضوا بها لاتباع الشهوات واحتجوا على رضاه بها، وكان ربما ظن ظان أن تماديهم على الكفر لم يكن بإرادته سبحانه، علل ذلك منبهاً على أن الكل فعله، وإنما نسبته إلى العباد بأمور ظاهرية، تقوم عليهم بها الحجة في مجاري عاداتهم، فقال: {إنا} أي بما لنا من العظمة {كل شيء} أي من الأشياء المخلوقة كلها صغيرها وكبيرها.

ولما كان هذا التعميم في الخلق أمراً أفهمه النصب، استأنف قوله تفسيراً للعامل المطوي وإخباراً بجعل ذلك الخلق كله على نظام محكم وأمر مقدر مبرم {خلقناه بقدر *} أي قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة وقودة بالغة وتدبير محكم في وقت معلوم ومكان محدود مكتوب في ذلك اللوح قبل وقوعه تقيسه الملائكة بالزمان وغيره من العد وجميع أنواع الأقيسة- فلا يخرم عنه مثقال ذرة لأنه لا منازع لنا مع ما لنا من القدرة الكاملة والعلم التام، فهذا العذاب بقدرتنا ومشيئتنا فاصبروا عليه وارضوا به كما كنتم ترضون أعمالكم السيئة ثم تحتجون على عبادنا بأنها مشيئتنا بنحو {ولو شاء الله ما أشركنا} [الأنعام: 148] فقد أوصلكم إلى ما ترون وانكشف أتم انكشاف أنه لا يكون شيء على خلاف مرادنا، ولا يقال لشيء قدرناه:

لم؟ قال الرازي في اللوامع: الكمية ساقطة عن أفعاله كما أن الكيفية والكمية ساقطتان عن ذاته وصفته- انتهى. ولا يكون شيء من أمره سبحانه إلا ما هو على غاية الحكمة، ولو كان الخلق لا يبعثون بعد الموت ليقع القصاص والقياس العدل ليكون القياس جزافاً لا بقدر وعدل، لأن المشاهد أن الفساد في هذه الدار من المكلفين من الصلاح أضعافاً مضاعفة، وقرئ في الشواذ برفع «كل» وجعله ابن جني أقوى من النصب، وليس كذلك لأن الرفع لا يفيد ما ذكرته، وما حمله على ذلك إلا أنه معتزلي، والنصب على ما قدرته قاصم لأهل الاعتزال.

ولما بين أن كل شيء بفعله، بين يسر ذلك وسهولته عليه فقال: {وما أمرنا} أي كل شيء أردناه وإن عظم أثره، وعظم القدر وحقر المقدورات بالتأنيث فقال: {إلا واحدة} أي فعلة يسيرة لا معالجة فيها وليس هناك إحداث قول لأنه قديم بل تعلق القدرة بالمقدور على وفق الأرادة الأزلية، ثم مثل لنا ذلك بأسرع ما يعقله وأخفه فقال؛ {كلمح بالبصر *} فكما أن لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه، فكذلك الأفعال كلها، بل أيسر من ذلك.

ولما أخبر بتمام قدرته، وكان إهلاك من ذكر من الكفار وإنجاء من ذكر من الأبرار في هذه السورة نحواً مما ذكر من أمر الساعة في السهولة والسرعة، دل على ذلك بإنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه فذكر بهم جملة وبما كان من أحوالهم بأيسر أمر لأن ذلك أوعظ للنفوس وأزجر للعقول، فقال مقسماً تنبيهاً على عادتهم في الكفر مع هذا الوعظ فعل المكذب بهلاكهم لأجل تكذيبهم عاطفاً على ما تقديره: ولقد أنجينا رسلنا وأشياعهم من كل

شيء خطر: {ولقد أهلكنا} أي بما لنا من العظمة {أشياعكم} الذين أنتم وهم شرع واحد في التكذيب، والقدرة عليكم كالقدرة عليهم، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فلذلك سبب عنه قوله: {فهل من مدكر *} أي بما وقع لهم أنه مثل من مضى بل أضعاف.

...، وأن قدرته سبحانه عليه كقدرته عليهم ليرجع عن غيه خوفاً من سطوته سبحانه.

ولما تمت الدلالة على إحاطة القدرة بما شوهد من الأفعال الهائلة التي لا تسعها قدرة غيره سبحانه، وكانوا يظنون أن أحواله غير مضبوطة لأنه لا يمكن ضبطها ولا يسعها علم عالم ولا سيما إذا ادعى أنه واحد، شرع في إتمام الإخبار بعظمة القدر بالإخبار بأن أفعالهم كلها مكتوبة فضلاً عن كونها محفوظة فقال: {وكل شيء فعلوه} أي الأشياء في أيّ وقت كان، كأن بالكتابة {في الزبر *} أي كتب الحفظة فليحذروا من أفعالهم فإنها غير منسية، هذا ما أطبق عليه القراء مما أدى إلى هذا المعنى من رفع كل، لأنه لو نصب لأوهم تعلق الجار بالفعل فيوهم أنهم فعلوا في الزبر كل شيء من الأشياء وهو فاسد.

ولما خصهم، عم بقوله واعظاً ومخوفاً ومحذراً بأن كل شيء محفوظ فمكتوب فمعروض على الإنسان يوم الجمع: {وكل صغير وكبير} من الجواهر والمعاني منهم ومن غيرهم {مستطر *} أي مكتوب على وجه عظيم من اجتهاد الحفظة في كتابته وتحريره مع يسر ذلك وسهولته.

ولما أخبر عن أحوال الكفرة في الدنيا والآخرة واعظاً بها وإعلاماً بعظمته وعليّ صفاته وسعة مملكته وشامل علمه وقدرته، ختم بأحوال القسم الآخر من أهل الساعة وهم أهل طاعته تتميماً لذلك وإشارة وبشارة للسالك في أحسن المسالك، فقال مؤكداً رداً على المنكر: {إن المتقين} أي العريقين في وصف الخوف من الله تعالى الذي أداهم إلى أن لا يفعلوا شيئاً إلا بدليل.
ولما كان من البساتين والمياه وما هو ظاهر بكل مراد على عكس ما عليه الضال البعيد عن القصد الواقع في الهلاك والنار قال: {في جنات} أي في بساتين ذات أشجار تسر داخلها، قال القشيري: والجمع إذا قوبل بالجمع فالأحاد تقابل الأحاد. ولما كانت الجنان لا تقوم وتدوم إلا بالماء قال: {ونهر *} وأفرده لأن التعبير ب «في» مفهم لعمومهم به عموم ما كأنه ظرف وهم مظروفون له، ولكثرة الأنهار وعظمها حتى أنها لقرب بعضها من بعض واتصال منابعها وتهيئ جميع الأرض لجري الأنهار منها كأنها شيء واحد، وما وعد به المتقون من النعيم في تلك الدار فرقائقه معجلة لهم في هذه الدار، فلهم اليوم جنات العلوم وأنهار المعارف، وفي الآخرة الأنهار الجارية والرياض والأشجار والقصور والزخارف، وهو يصلح مع ذلك لأن يكون مما منه النهار فيكون المعنى: أنهم في ضياء وسعة لا يزايلونه أصلاً بضد ما عليه المجرم من العمى الناشئ عن الظلام، ولمثل هذه الأغراض أفرد مع إرادة الجنس لا للفاصلة فقط.
ولما كانت البساتين لا تسكن في الدنيا لأنه ليس فيها جميع ما يحتاجه الإنسان، بين أن حال تلك غير حال هذه، فقال مبدلاً مما قبله: {في مقعد}

أي تلك الجنان محل إقامتهم التي تراد للقعود {صدق} أي فيما أراده الإنسان صدق وجوده الإرادة ولا يقعد فيه إلا أهل الصدق، ولا يكون فيه إلا صدقه، لا لغو فيه ولا تأثيم، والتوحيد لإرادة الجنس مع أن الإبدال يفهم أنه لا موضع في تلك الجنان إلا وهو الصالح للتسمية بهذا الاسم ولأنهم لاتحاد قلوبهم ورضاهم كأنهم في مقعد واحد على أنه قرئ بالجمع.

ولما كان هذا غير معهود، بين أن سببه تمكين الله لهم منه لاختصاصه لهم وتقريبه إياهم لإرضائه لهم، فقال مقيداً لذلك بالتعبير بالعندية لأن عنديته سبحانه تعالى منزهة عن قرب الأجسام والجهات: {عند مليك} أي ملك تام الملك {مقتدر} أي شامل اقدرة بالغها إلى حد لا يمكن إدراكه لغيره سبحانه كما تقدم قريباً، فهو يوصلهم إلى كل خير ويدفع عنهم كل ضير، وكما أن لهم في الآخرة عندية الإشهاد فلهم في الدنيا عندية الإمداد، ولهذا الاسم الشريف سر في الانتصار على الظالمين، ولقد ختمت السورة كما ترى كما ابتدئت به من أمر الساعة، وكانت البداية للبداية والنهاية للنهاية، وزادت النهاية بيان السبب الموجد لها، وهو قدرته سبحانه وعز شأنه وعظمت رحمته وإحسانه، وعفوه ومغفرته ورضوانه، ولتصنيف الناس فيها إلى كافر مستحق للانتقام، ومؤمن مؤهل لغاية الإكرام، لم يذكر الاسم الأعظم الجامع الذي يذكر في سياق مقتضى جمع الجلال والإكرام لصنف واحد وهو من يقع منه الإيمان ولا يتدنس بالعصيان، وهم الذين آمنوا، ولمشاركتها للسورتين اللتين بعدها في هذا العرض، وهو الكلام في حق الصنفين فقط من غير ذكر عارض ممن آمن، أشرك الثلاثة في الخلو عن ذكر الاسم

الأعظم. فلم يذكر في واحدة منها وجاء فيها من الصفات ما يقتضي العظمة على أهل الكفران، وما ينبئ عن الإكرام والإحســـان لأهل الإيمان {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: 46] ولهذا ختمت هذه بصـــفة الملك المقتضـــي للسـطوة التامة والإكرام البالغ وعدم المبالاة بأحد كائناً من كان، لأن الملك من حيث هو ملك إما يقتضـــي مقامه إهانة العدو وإكرام الولي، وجعل ذلك على وجه المبالغة أيضـاً، كل ذلك للإعلام بأن تصـريفه سبحانه لأحوال الآخرة كما قصـد في هذه السـورة من تصـريفه في أحوال الدنيا من إهلاك الأعداء وإنجاء الأولياء، وكأن هذه الســورة كانت هكذا لأنها جاءت عقب النجم التي شـرح فيها الإسـراء وكان للنبي صـلى الله عليه وسـلم من العظمة بخرق العوائد باختراق الســماوات، والوصـــول إلى أنهى الغاية من المناجاة، وغيره من سـر الملكوت ومحل الجبروت، بعد أن لوح بمقامه عليه الصـلاة والسـلام بالطور ليعلم الفرق ويوصـف كل بما هو الحق، فكان ذلك مقتضـــياً لئلا يكون بعده من الناس إلا مؤمن خالص، فإن كان غيره فهو معاند شـــديد الكفر، وكأنها جعلت ثلاثاً لإرادة غاية التأكيد لهذا المعنى الشديد، فلما انقضت الثلاثة كان متبركاً به في معظم آيات الحديد ثم توجت كل آية من آيات المجادلة به إشــارة إلى أنه قد حصــل غاية التشـوف إليه ترهيباً لمن يعصـــي ولا سـيما من يظاهر، وترغيباً في الطاعة للملك الغافر، والله الموفق لما يريد إنه قوي فعال لما يريد.